من محددات نظرية الترتيل في القرءان الكريم:
الوحدة الموضوعية للسورة القرءانية

د.محمد المنتار •

يختص القرآن الكريم بنظام مفاهيمي فريد في دلالاته، وإحكام دقيق في سياقاته، فكل كلمة فيه ينتظرها مكانها، وكل مفردة قرآنية جاءت على غاية الإتقان، وكمال الإحكام، دون أن تنشز عن أختها، أو تشد عن سابقتها أو لاحقتها في أداء الغرض وبيان المقصود. بل إن الحرف الواحد لا يمكن أن ينزع أو يستبدل بآخر، ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾(فصلت:42)، وهذا من إحكام هذا الكتاب العظيم المهيمن على سائر الكتب السابقة: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:48).

ولا شك أن خصوصية النص القرآني والعناية الفائقة به، والبناء على علو مصدره وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله، يستدعي

• رئيس مركز الدراسات القرآنية بالرابطة المحمدية للعلماء.

التعامل مع القرآن الكريم، سواء في لغته، أو نظمه، أو نظام دلالاته، بطريقة تختلف عن التعامل مع أي نص آخر. وذلك بالنظر إلى تناسق الكلم القرآني ضمن آيات الذكر الحكيم؛ لأن الكلمة لا تؤدي الغرض المطلوب إلا عند انضمامها إلى نظائرها، وانسجامها ضمن رابطة القول التي تجعلها حلقة في سلسلة من العبارات، تهدف إلى بيان معنى محدد.

الكلمات بمفردها لا تؤدي معنى إلا عند انضمامها بعضا إلى بعض في تناسق ونظام محكمين

ولما كان التحدي القرآني منصباً على استحالة الإتيان بنص مشابه لآي القرآن، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ (البقرة:23)، وقد ورد التحدي الإلهي بهذا في غير موضع من القرآن، في سورة القصص: ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ (القصص:49) وفي سورة الإسراء: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ (الإسراء:88) وفي سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾(هود:13). وفي سورة يونس: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾(يونس:37،38).

لما كان كذلك؛ كان مركز الإعجاز القرآني متمحوراً حول النص القرآني لجهة معناه ومبناه. واتجهت البحوث نحو الكشف عن استعمالات القرآن الكريم للغة وطرق تركيبه وتقنيات الإدهاش في صوره البيانية، وتناسب آياته وسوره.

وقد تضافرت النصوص الحديثية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تدل بوضوح على أن نظم الآيات القرآنية في سورها أمر توقيفي، لا مجال فيه للأخذ والرد؛ حيث كان عليه الصلاة والسلام يأمر أصحابه من كتبة الوحي أن يضعوا ما جد نزوله، من آية، أو شطر آية، أو جملة آيات، في مواضعها المخصصة لها من السورة القرآنية، وذلك بناء على التوجيه الإلهي الذي تلقاه المصطفى صلى الله عليه وسلم عن طريق ملك الوحي جبريل عليه السلام. وقد نقل القرطبي في الجامع لأحكام القرآن عن أبي بكر الأنباري (ت 328هـ) قوله بأن اتساق الآيات توقيفي[1].

وهو المنقول عن أبي بكر الباقلاني (ت403هـ)؛ ففي مواضع متعددة يذكر الاتفاق بشأن توقيفية نظم الآي في سورها حيث يقول: "ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا"[2]، ونقل عنه أيضا قوله: "الذي نذهب إليه، أن جميع القرآن الذي أنزله الله، وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته بعد نزوله، وهو هذا الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من آي السور، ولم يقدم في ذلك مؤخر، ولا أخر منه مقدم، وإن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آي كل سورة، ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة"[3].

---

1 ـ **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله القرطبي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006م. 60/1.

2 ـ **نكت الانتصار في نقل القرآن**، الباقلاني ص 83، **والبرهان في علوم القرآن**، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، د.ت، 256/1، **والإتقان في علوم القرآن**، للسيوطي، تحقيق: عصام فارس الحرستاني، دار الجيل، بيروت، ط1، 1998م، 61/1.

3 ـ **الإتقان** 61/1.

وهو ما نقله العلامة ابن الزبير الغرناطي (708 هـ)؛ في قوله: "إن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين"[1].

ونقل السيوطي في الإتقان قول الإمام ابن الحصار(ت 611هـ): "ترتيب السور، ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف"[2].

وإذا كان للكون سنن تحكمه، وقوانين تضبطه، يمثل المنهج العلمي الضابط لها، والكاشف عن أوجه علاقاتها، وبدون ذلك لا يفهم الكون. فإن للقرآن الكريم سننا تربط بين آياته وكلماته وسوره، ينبغي فهمها في إطار بنائيته الكلية، بالتفاعل العميق الدائم مع القرآن، وبذلك نقف على المنهجية المعرفية القرآنية، التي تسهم في فتح طريق التجديد والوسطية، ونشر الهدى ودين الحق.

خصوصية الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية

من المعلوم أن للقرآن منهجين محكمين، قام أحدهما على التنجيم النزولي وفق توارد الأحداث والوقائع مدة ثلاث وعشرين سنة، والآخر اعتمد خطة تفصيلية شاملة، رسمت فيها مواقع النجوم القرآنية على أدق الحدود والتفاصيل، وأبرمت بآكد العزم والتصميم، حتى أخذ القرآن الكريم نظمه البديع في كلماته وآياته وسوره.

---

1 ـ **البرهان في ترتيب سور القرآن**، لابن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعباني، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ط 1، 1992، ص 182.

2 ـ **الإتقان**، السيوطي 62/1

وقد نال المنهج النزولي من الدراسة والبحث الشيء الكثير قديما وحديثا، وكتبت فيه المؤلفات الطوال، سواء من جهة أسباب النزول رواية، أم من جهة دور تلك الأسباب في بيان المراد من النص القرآني وزيادة الإيضاح ودفع الاشتباه.

يكمن إعجاز القرآن المجيد في نظمه معنى ومبنى، ذلك أن نظم الآي في السور، والسور في القرآن المجيد هو أمر توقيفي من الله عز وجل

أما المنهج الثاني الذي استقر عليه أمر القرآن، وانتظمت من خلاله وحداته، فقد كان حظه من الدرس والبحث أقل من سابقه، وما كتب فيه أصالة أقل من القليل، فلا تزال مباحثه مبثوثة متناثرة في موسوعات التفسير، وفي كتب علوم القرآن، وفي كتب اللغة. وقد أوقع إغفال هذا الجانب الكثيرين في سوء الفهم، أو التأويل، أو التفسير عند تعاملهم مع القرآن الكريم.

وقد توصل أهل البلاغة والبيان أمثال الجرجاني، إلى أن إعجاز القرآن كامن في نظمه الداخلي الذي لا يتحصل بمجرد توالي الألفاظ في النطق، بل في تناسب دلالاتها وتلاقي معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. فإعجاز القرآن - بحسب الجرجاني - كامن في نظمه الداخلي وإن جاء بلسان العرب، وعلى مواضعاتهم اللغوية، ووفق قواعد لغتهم النحوية.

ومن منن الله عز وجل على عباده المومنين أن أقر بين ظهرانيهم القرآن ترتيلا، له وحدته العضوية التي تشكل أحد أهم وجوه الإعجاز فيه، وتفتح المجال أمام القراءة المنهجية للآيات البصائر صعدا نحو مآلات معرفية لا حصر لها. ومن مداخل هذه القراءة المنهجية الإحاطة بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ومختلف تعلقاتها.

ونظرا لمحوريتها في عملية فهم نصوص الوحي، اجتهد علماء الأمة في الكشف عن الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية سواء من خلال النظرة الكلية

الجامعة للسور القرآنية، أو من خلال الاهتداء بعلامات مضيئة داخل السورة القرآنية (من قبيل النظر إلى فاتحة السورة، أو النظر إلى خاتمتها، أو النظر إلى قصصها، أو النظر إلى قضاياها، أو النظر إلى الألفاظ والتعابير المميزة لها)، أو من خلال الاهتداء بالعلامات المضيئة الخارجية للسورة القرآنية (من قبيل النظر إلى الأحاديث الصحيحة الواردة عن السورة، أو النظر إلى بيئة نزول السورة: "المرحلة الزمنية لنزول السورة، أو سبب نزولها"، أو النظر إلى محل السورة في السياق القرآني العام)[1].

والمقصود بالوحدة الموضوعية للسورة عند أهل الدراسات القرآنية أن كل سورة من سور القرآن لها وحدة معنوية وموضوع رئيس تدور حوله وتتميز به. وقد اختاروا لها أسماء متنوعة، مثل: الموضوع الواحد، أو الموضوع الكلي، أو الموضوع الأساسي، أو الموضوع الرئيس، أو قضية السورة، أو الفكرة الواحدة، أو الهدف الواحد، أو الهدف الأساسي، أو الغرض الواحد، أو المحور الواحد، أو شخصية السورة، أو المقصد الواحد، أو عمود السورة، أو محور السورة...

وقد نقلت لنا كتب علوم القرآن عن القاضي أبي بكر بن العربي المعافري المالكي(ت 543 هـ) نصا نفيسا مؤسسا في هذا الباب أورده في كتابه "سراج المريدين" يقول فيه: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه " سورة البقرة"، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه"[2].

---

1 ـ **الوحدة القرآنية: دراسة تحليلية مقارنة**، د. محمد بن محمود خوجة، دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، ط 1، 2010م، ص 277 ـ 281.

2 ـ **الإتقان في علوم القرآن** 3 / 369 .

وخلص الإمام برهان الدين البقاعي(ت 885 هـ) إلى "أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه، ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها"[1].

وهو ما وفق في بيانه ثلة من العلماء المعاصرين أمثال الشيخ عبد الحميد الفراهي، الذي جعل الكشف عن وحدة السورة القرآنية وبيان محورها، وغرضها، هدفا لعدد من كتبه، في مقدمتها تفسيره الموسوم بـ "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان"، وكتابه "دلائل النظام".

وهو اختيار الشيخ عبد الله دراز الذي تفنن في التدليل على أن السورة القرآنية كلّ لا يتجزأ، ووحدة كلية تحوي شبكة من المعاني والمباني الجليلة، وهو ما يبدو جليا في العديد من كتبه مثل "النبأ العظيم"، وكتاب "مدخل إلى القرآن الكريم".

وهو المنحى الذي سلكه وتبناه بشكل عملي وتطبيقي الأستاذ سيد قطب في تفسيره الماتع والممتع "في ظلال القرآن"، إذ نلفيه في غير ما موضع من تفسيره القيم يؤكد ويبرز أن لكل سورة شخصيتها المستقلة ومحورها الخاص بها، وقد فتح الله عليه في ذلك فتوحات نورانية، جديرة بالتأمل والتدبر.

معالم الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية عند الإمام الشاطبي (ت 790 هـ)

تشكل السورة القرآنية نسقا فنيا كامل المعالم يدعو إلى التأمل والتدبر، ولا يكتمل المقصد العام، ولا الغرض المطلوب للسورة القرآنية إلا بمراعاة وحدتها

1 ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** للبقاعي، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م، 12/1.

الموضوعية ضمن النظم القرآني، وإطارها العام المميز لها.[1] لذلك نجد السور القرآنية متميزة بمسميات محددة، ونجد كل سورة من سور القرآن تهدف إلى تحقيق غرض محدد وموضوع معين.

والناظر في مدونات علوم القرآن يجد اهتماما علميا بهذا الجانب، فمن العلماء من تكلم عن الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، ومنهم من برع في الكشف عن التناسب بين اسم السورة وموضوعها، وبعضهم تفنن في التدليل على التناسب بين السورة وجارتها، ومنهم من جعل همّه الأول الكشف عن الوحدة الموضوعية في القرآن بأكمله.

السورة القرآنية كلّ لا يتجزأ، ووحدة كلية تحوي شبكة من المعاني الجليلة، من أجل ذلك اهتم العلماء كثيرا بالوشائج العلائقية لها سواء الداخلية منها أو الخارجية

ومن المبرزين الذين خاضوا غمار هذا الحقل المعرفي الإمام الشاطبي (ت790 هـ) رحمة الله عليه، الذي اجتهد في تسطير أسس علمية ومداخل منهجية في التعامل مع القرآن الكريم. فقد قسم رحمه الله سور القرآن الكريم إلى **قسمين**: قسم فيه وحدة الموضوع في السورة وذلك في أكثر سور المفصل، وقسم لا يتضمن ذلك. وخص رحمه الله القسم الثاني باعتبارين: "**اعتبار من جهة تعدد القضايا** فتكون كل قضية مختصة بنظرها، ومن هنالك يلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه، ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول فلا فرق بينهما في التماس العلم والفقه. **واعتبار من جهة النظم** الذي وجدنا عليه السورة، إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال. ويشترك معه أيضا القسم الأول لأنه نظم ألقي بالوحي. وكلاهما

1 ـ **النظم القرآني وأثره في الأحكام**، الصادق سالم الخازمي، النشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان بطرابلس، ط1، 1985م، ص 120. 121 بتصرف.

لا يلتمس منه فقه على وجه ظاهر، وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز وبعض المسائل الأخرى. وجميع ذلك لابد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات، فاعتبار جهة النظم مثلا في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود. كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها"[1].

وفي السياق نفسه يؤكد الشاطبي رحمه الله "أن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحدا بكل اعتبار، بمعنى أنه نزل في قضية واحدة طالت أو قصرت وعليه أكثر سور المفصل، وتارة يكون متعددا في الاعتبار؛ بمعنى أنه نزل في قضايا متعددة كسورة البقرة وآل عمران والنساء واقرأ باسم ربك وأشباهها، ولا علينا أنزلت السورة بكاملها دفعة واحدة أم نزلت شيئا بعد شيء"[2].

ويتضح من كلام الشاطبي رحمه الله أن كل سورة من سور القرآن الكريم مشتملة على وحدة فنية تتعلق بالنظم، وهو مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني، وهو مسلك فريد في تأصيل أسس قويمة ودقيقة في التعامل مع القرآن الكريم.

كما يتبين منهج الرجل في فهم الكتاب الكريم من ناحية ربط بعض جمله المشتركة في قضية واحدة، وكيف أنه بمعاضدة بعضها لبعض يتبين مقصود الخطاب[3].

---

1. **الموافقات في أصول الشريعة**، للإمام الشاطبي، شرحه وخرج آياته الشيخ عبد الله دراز، دار الكتب العلمية د. ت 310/3.

2. **الموافقات** 310/3.

3. انظر هامش الموافقات رقم 3 308/3-309، ويضيف الشيخ عبد الله دراز: "ويتبين فقه الكلام، وأنه لا تؤخذ جملة منقطعة عن سابقها ولاحقها، وأن السورالنازلة في قضية واحدة أمرها ظاهر، وأما السور المشتملة على قضايا كثيرة فينظر فيها إلى ترتيب السورة كلها ككلام واحد؛ لأن هذا يفيد من وجهة الإعجاز وإدراك انفراد الكتاب بمرتبة في البلاغة لا تنال".

وهو ما يؤكده في الحديث عن سورة البقرة بقوله: "فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بث فيها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم ومنها ما هو المقصود في الإنزال "[1].

ويضيف رحمه الله "وذلك[2] تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك"[3].

وحتى لا يبقى كلامه نظريا بسط الإمام الشاطبي أمثلة تطبيقية من خلال سورة البقرة، تبين المقصود وتوضحه، يقول فيه: "ولا بد من تمثيل شيء من هذه الأقسام فبه يبين ما تقدم فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾(البقرة:183) إلى قوله: ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾(البقرة:187) كلام واحد وإن نزل في أوقات شتى وحاصله بيان الصيام وأحكامه وكيفية آدابه وقضائه وسائر ما يتعلق به من الجلائل التي لا بد منها ولا ينبنى إلا عليها. ثم جاء قوله: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾(البقرة:188) الآية كلام آخر بين أحكام أخر. وقوله: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾(البقرة:189) وانتهى الكلام على قول طائفة، وعند أخرى أن قوله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت﴾(البقرة:189) الآية من تمام مسألة الأهلة، وإن انجر معه شيء آخر، كما انجر على القولين معا تذكير وتقديم لأحكام الحج في قوله: ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾(البقرة 189)"[4].

---

1. **الموافقات** 311/3.

2. أي المقصود الأول في الإنزال هو تقرير الأحكام في كل باب وقضية من القضايا المتعددة. انظر هامش الموافقات 311/3.

3. **الموافقات** 311/3.

4. **الموافقات** 311/3.

ويشير الإمام الشاطبي رحمه الله، إلى أن سورة الكوثر نازلة في قضية واحدة وسورة ﴿اقرأ﴾(العلق:1) نازلة في قضيتين: الأولى إلى قوله: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (العلق:5). والثانية ما بقي إلى آخر السورة[1].

ثم ضرب مثلا آخر مطولا بسورة "المومنون" حيث ذكر أنها نازلة في قضية واحدة وأنها اشتملت على معان كثيرة، فإنها من المكيات، وغالب المكي مقرر لثلاثة معان أصلها معنى واحد: وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى وهي:

أولا: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق.

ثانيا: تقرير النبوة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول الله إليهم جميعا، صادق فيما جاء به من عند الله.

ثالثا: إثبات أمر البعث والدار الآخرة وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة، والرد على من أنكر ذلك[2].

وبناء عليه يرى الشاطبي أن "هذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن الكريم بمكة في عامة الأمر. فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر في سورة "المؤمنون" مثلا وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه، إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي مدخل للمعنيين الباقين، وإنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن جاءت. فكانت السورة تبين وصف البشرية وما تنازعوا فيه منها وبأي وجه تكون على أكمل وجوهها حتى تستحق الاصطفاء والاجتباء

1. نفس المصدر 3/311.

2. نفس المصدر 3/311-312.

من الله تعالى[1]، "فسورة المؤمنون قصة واحدة في شيء واحد "[2]. وبيان ذلك أن السورة افتتحت بثلاث جمل:

إحداها: وهي الآكد في المقام، بيان الأوصاف المكتسبة للعبد التي إذا اتصف بها رفعه الله وأكرمه وذلك قوله: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾(المومنون:1) إلى قوله: ﴿وهم فيها خالدون﴾(المومنون:11).

الثانية: بيان أصل التكوين للإنسان وتطويره الذي حصل له، جاريا على مجاري الاعتبار والاختيار، بحيث لا يجد الطاعن إلى الطعن على من هذا حاله سبيلا.

الثالثة: بيان وجوه الإمداد له من خارج بما يليق به في التربية والرفق، والإعانة على إقامة الحياة، وأن ذلك له بتسخير السموات والأرض وما بينهما. وكفى بهذا تشريفا وتكريما[3].

ثم ذكرت قصص من تقدم من الأمم مع أنبيائهم واستهزائهم بهم بأمور منها كونهم من البشر؛ ففي قصة نوح مع قومه قولهم: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾(المومنون:24)، ثم أجمل ذكر قوم آخرين أرسل فيهم رسولا منهم... فقالوا: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه﴾(المومنون:33)، ﴿ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾(المومنون:34) ثم قالوا: ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا﴾(المومنون:38) أي هو من البشر، ثم قال تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾(المومنون:44) فقوله: ﴿رسولها﴾ مشيرا إلى أن المراد رسولها الذي تعرفه منها، ثم ذكر موسى وهارون ورد فرعون وملئه بقولهم أنؤمن

1. نفس المصدر 312/3

2. الموافقات 314/3

3. نفس المصدر 312/3.

لبشرين مثلنا الخ هذا كله حكاية عن الكفار الذين غضوا من رتبة النبوة بوصف البشرية تسلية لمحمد عليه الصلاة و السلام ثم بين أن وصف البشرية للأنبياء لا غض فيه وأن جميع الرسل إنما كانوا من البشر يأكلون ويشربون كجميع الناس، والاختصاص أمر آخر من الله تعالى فقال بعد تقرير رسالة موسى وجعلنا ابن مريم وأمه آية وكانا مع ذلك يأكلان ويشربان ثم قال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات أي هذا من نعم الله عليكم والعمل الصالح شكر تلك النعم ومشرف للعامل به، فهو الذي يوجب التخصيص لا الأعمال السيئة وقوله وأن هذه أمتكم أمة واحدة إشارة إلى التماثل بينهم وأنهم جميعا مصطفون من البشر ثم ختم هذا المعنى بنحو مما به بدأ فقال إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون إلى قوله هم لها سابقون.[1]

وإذا تؤمل هذا النمط من أول السورة إلى هنا، فهم أن ما ذكر من المعنى هو المقصود مضافا إلى المعنى الآخر وهو أنهم إنما قالوا ذلك وغضوا من الرسل بوصف البشرية استكبارا من أشرافهم وعتوا على الله ورسوله فإن الجملة الأولى من أول السورة تشعر بخلاف الاستكبار وهو التعبد لله بتلك الوجوه المذكورة والجملة الثانية مؤذنة بأن الإنسان منقول فى أطوار العدم وغاية الضعف فإن التارات السبع أتت عليه وهي كلها ضعف إلى ضعف وأصله العدم فلا يليق بمن هذه صفته الاستكبار والجملة الثالثة مشعرة بالاحتياج إلى تلك الأشياء والافتقار إليها ولولا خلقها لم يكن للإنسان بقاء بحكم العادة الجارية فلا يليق بالفقير الاستكبار على من هو مثله فى النشأة والخلق فهذا كله كالتنكيت عليهم والله أعلم. ثم ذكر القصص فى قوم نوح فقال الملأ الذين كفروا من قومه والملأ هم الأشراف وكذلك فيمن بعدهم وقال الملأ من قومه الذين كفروا

1 ـ نفس المصدر 3/313.

وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم الآية. وفي قصة موسى أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ومثل هذا الوصف يدل على أنهم لشرفهم فى قومهم قالوا هذا الكلام ثم قوله: ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾(المومنون:54)، إلى قوله: ﴿لا يشعرون﴾(المؤمنون:56) رجوع إلى وصف أشراف قريش وأنهم إنما تشرفوا بالمال والبنين فرد عليهم بأن الذى يجب له الشرف من كان على هذا الوصف وهو قوله: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾(المومنون:57) ثم رجعت الآيات إلى وصفهم فى ترفهم وحال مآلهم، وذكر النعم عليهم، والبراهين عل صحة النبوة، وأن ما قال عن الله حق من إثبات الوحدانية، ونفي الشريك وأمور الدار الآخرة للمطيعين والعاصين، حسبما اقتضاه الحال والوصف للفريقين فهذا النظر إذا اعتبر كلياً في السورة وجد على أتم من هذا الوصف، لكن على منهاجه وطريقه. ومن أراد الاختبار فى سائر سور القرآن فالباب مفتوح، والتوفيق بيد الله. فسورة "المومنون" قصة واحدة فى شيء واحد[1].

لقد بيّن الإمام الشاطبي بطريقة عملية أن سورة المؤمنون لها موضوع واحد تدور في فلكه موضوعاتها جميعا، وهو ذكر إنكار الكفار للنبوة وهذه خطوة قيمة في بيان وحدة الموضوع للسورة القرآنية.

وبعد هذا البيان الإجمالي لسورة "المومنون"، يقول الشاطبي: " فسورة المؤمنون قصة واحدة في شيء واحد. وبالجملة؛ فحيث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام كنوح وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وهارون، فإنما ذلك تسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام، وتثبيت لفؤاده، لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله.

1 ـ الموافقات 314.

وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال، والجميعُ حق واقع لا إشكال في صحته. وعلى حذو ما تقدم من الأمثلة يحتذى في النظر في القرآن لمن أراد فهم القرآن"[1].

إن الهدف الذي قصد إليه الشاطبي هو إبراز التناسب بين بعض القرآن وبعض، باعتبار أن السورة القرآنية مهما تعددت قضاياها، فهي كلام واحد مرتبط أوله بآخره، وآخره بأوله، ومن خلال تعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، مع مراعاة نظام الكلام الذي يشمل تسلسل المعاني وترابطها الوثيق، والتناسب بين السابق واللاحق في نطاق الآيات والسور. وأنه لا غنى لمستفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى في ذلك عن أجزاء القضية. ويبدو القرآن بذلك كلا موحدا، لا تفاوت في مبانيه، ولا اختلاف في معانيه.

أكد الشاطبي رحمه الله على أن ضابط حصول مقصود الشارع في فهم المكلف هو الالتفات إلى أول الكلام وآخره، فلا محيص للمتفهم من رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره

وعدّ الشاطبي هذا ضابطا يعول عليه في فهم سور القرآن، قال: "لا بد من ضابط يعول عليه في مأخذ الفهم. والقول في ذلك أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل. وهذا معلوم في علم المعاني والبيان. فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم والالتفات إلى أول الكلام وآخره، بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها، ولا في آخرها دون أولها؛ فإن القضية وإن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد. فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره؛ وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع

1. نفس المصدر 314/4

في فهم المكلف. فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلا في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه، لا بحسب مقصود المتكلم. فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام"[1] .

1 ـ الموافقات 3/309-310